ملخص عن معركة ميريوكيفالون وأهميتها
٥٧٢هـ/ ١١٧٦م

أ.د. علي بن محمد عودة

تنبع أهمية معركة ميريوكيفالوم من النتائج المهمة التي تمخضت عنها ومما يؤسف له أن هذه المعركة الحاسمة تكاد تكون مجهولة لدارسي التاريخ الإسلامي، ويعود السبب في هذا إلى أن المصادر الإسلامية المعاصرة لم تتحدث أطلاقا عن معركة ،بل لم تُشِر إليها أبدا. ولا يوجد تفسير لإغفال المؤرخين المسلمين لذكر هذه المعركة الحاسمة، فقد كان يعيش في زمن المعركة العديد من المؤرخين الكبار في العراق والشام ومصر مثل ابن الجوزي، وبهاء الدين بن شداد، والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن الأثير وغيرهم. وقد فصّلواء كثيراً في الحوادث التاريخية التي جرت في عصرهم دون أن يُشيروا لتلك المعركة ، ولعلّ أخبارها لم تصل إليهم أو أنهم لم يُدركوا آهميتها فأغفلوها. ويُضاف إلى هذا آنه لم يوجد أي مؤرخ مسلم في تلك الحقبة في آسيا الصغرى حتى يتحدث عن تلك المعركة، ولهذا السبب كادت المعركة أن تكون مجهولة لدى الكثير من المختصين في دراسة التاريخ الإسلامي. وقصة المعركة جاءت مفصلة في رسالة الإمبراطور البيزنطي مانويل الاول الى صديقه الانجليزي هنري الثاني اضافة الى ما ذكره المؤرخ البيزنطي نيستاس خونياتس، وغيره من مؤرخي البيزنطيين والفرنج. ولقد تمخض عن هذه المعركة دمار الجيش البيزنطي وتدهور الإمبراطورية البيزنطية بعد أن كانت تقوم بشن الحروب الضارية ضد المسلمين في آسيا الصغرى وبلاد الشام، كما تمخض عن المعركة توطيد نفوذ دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وازدهارها ونتج عنها أيضاً تأمين الجناح الشمالي للجبهة الإسلامية المتحدة بقيادة صلاح الدين الأمر الذي مكنه من المضي قدما في جهاده ضد الصليبين دون أن يخشى جانب الدولة البيزنطية. في سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م نشبت الفتنة بين قلج أرسلان الثاني وبين ياغي آرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وتطورت إلى اندلاع الحرب الشديدة بينهما ، فانهزم قلج أرسلان أمام ابن دانشمند ،فاستنجد قلج أرسلان بالإمبراطور البيزنطي مانويل الأول الذي أرسل له مساعدة عسكرية طبقا لسياسته في إذكاء نار الخلافات بين الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى. ولكن ياغي أرسلان لم يلبث أن توفي واستولى قلج أرسلان الثاني على بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن دانشمند ، لأنه ملك بعد عمه ياغي أرسلان ، واستولى ذو النون محمد ابن دانشمند على مدينة قيسارية. وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية ، واستقرت القواعد بينهم واتفقوا كما يقول ابن الأثير: غير أن تفكك دولة بن دانشمند أغرى قلج أرسلان الثاني بأن يضم إليه بعض بلادهم، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م زحف على ملطية وسيواس فاستولى عليها وطرد منها صاحبها ذالنون محمد ابن دانشمند ،فهرب الأخير، ملتجئاً إلى نور الدين محمود و مستمدا العون منه ، فأكرمه وأرسل إلى قلج أرسلان يطالبه بإعادة. بلاد ذي النون إليه، فلم يُجبه إلى طلبه وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، آما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما. وإزاء إصرار قلج أرسلان على موقفه، ولم يجد نور الدين بدا من الضغط عليه عسكريا، فسار إلى جنوب آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون التابعة لقلج أرسلان ، كما أرسل فرقة عسكرية انتزعت سيواس وأعادتها إلى ذي النون، وعندما شعر قلج أرسلان بجدية تهديد نور الدين أرسل إليه طالبا الصلح، فأجابه نور الدين إلى طلبه، وأرسل إليه شروطه ومن أهمها قوله:إذا طلبت

عسكرك إلى الغزاة تُسيّره فإنك ملكت طرفا كبيرا من بلاد الإسلام وتركت الروم و جهادهم وهادنتهم، فأما أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الأفرنج ، واما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم ولم يسع قلج أرسلان إلا الموافقة على شروط نور الدين الذي ترك فرقته العسكرية في سيواس لمساعدة ذي النون بن دانشمند. وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م عاد قلج أرسلان واستولى على بلاد ذي النون مرة آخرى. ولم يجد ذوالنون ابن دانشمند حليفا يشدُ من أزره ويقف إلى جانبه، بعد وفاة نور الدين، فلجأ الى القسطنطينية شاكيا من قلج أرسلان كما أن شقيق قلج آرسلان شاهان شاه لجأ هو الآخر إلى القسطنطينية بعد أن انتزع منه بلاده. ومن الطبيعي أن يستجيب مانويل الأول لذي النون وشاهان شاه ولاسيما بعد أن ازدادت قوة قلج أرسلان كثيراً بعد أن عزل سائر منافسيه وأصبح هو الحاكم الأقوى في أسيا الصغرى . كما أن قلج إرسلان استأنف من جانبه غزواته على حدود الدولة البيزنطية بتشجيع من الإمبراطور الألماني فريدريك بربرسا الذي يبدو أن هدفه من ذلك تحويل انتباه مانويل عن التدخل في الشئون الأوربية من ناحية وتخفيف الضغط على الإمارات الصليبية في بلاد الشام من جانب المسلمين من ناحية أخرى ولذلك شرع مانويل في تحصين نشط لحدوده فأعاد بناء دوريليوم كما أحرز بعض الإنتصارات البسيطة في صيف سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م وأرسل إلى البابا في روما يحثه على الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وبدأ في أعداد قوات الإمبراطورية للزحف على آسيا الصغرى ،ويبدو أن قلج أرسلان علم بالإستعدادات الضخمة للإمبراطور مانويل و تصميمه على اجتياح بلاده، فأرسل في شتاء ٥٧١هـ/ ١١٧٥م-١١٧٦م رسولا إلى القسطنطينية ملتمسات تجديد اتفاقية الصلح ، فقول لهذا الإلتماس بالرفض. وفي ربيع ملخص عن معركة ميريوكيفالوم وأهميتها ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م : تنبع أهمية معركة ميريوكيفالوم من النتائج المهمة التي تمخضت عنها ومما يؤسف له أن هذه المعركة الحاسمة تكاد تكون مجهولة لدارسي التاريخ الإسلامي، ويعود السبب في هذا إلى أن المصادر الإسلامية المعاصرة لم تتحدث أطلاقا عن المعركة ،بل لم تُشر إليها أبدا. ولا يوجد تفسير لإغفال المؤرخين المسلمين لذكر هذه المعركة الحاسمة، فقد كان يعيش في زمن المعركة العديد من المؤرخين الكبار في العراق والشام ومصر مثل ابن الجوزي، وبهاء الدين بن شداد، والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن الأثير وغيرهم. وقد فصّلواء كثيراً في الحوادث التاريخية التي جرت في عصرهم دون أن يُشيروا لتلك المعركة ، ولعلّ أخبارها لم تصل إليهم أو أنهم لم يُدركوا آهميتها فأغفلوها. ويُضاف إلى هذا آنه لم يوجد أي مؤرخ مسلم في تلك الحقبة في آسيا الصغرى حتى يتحدث عن تلك المعركة، ولهذا السبب كادت المعركة أن تكون مجهولة لدى الكثير من المختصين في دراسة التاريخ الإسلامي. وقصة المعركة جاءت مفصلة في رسالة الإمبراطور البيزنطي مانويل الاول الى صديقه الانجليزي هنري الثاني اضافة الى ما ذكره المؤرخ البيزنطي نيستاس خونياتس، وغيره من مؤرخي البيزنطيين والفرنج. ولقد تمخض عن هذه المعركة دمار الجيش البيزنطي وتدهور الإمبراطورية البيزنطية بعد أن كانت تقوم بشن الحروب الضارية ضد المسلمين في آسيا الصغرى وبلاد الشام، كما تمخض عن المعركة توطيد نفوذ دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وازدهارها.

ونتج عنها أيضاً تأمين الجناح الشمالي للجبهة الإسلامية المتحدة بقيادة صلاح الدين الأمر الذي مكنه من المضي قدما في جهاده ضد الصليبين دون أن يخشى جانب الدولة البيزنطية٠ في سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م نشبت الفتنة بين قلج أرسلان الثاني وبين ياغي آرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وتطورت إلى اندلاع الحرب الشديدة بينهما ، فانهزم قلج أرسلان أمام ابن دانشمند ،فاستنجد قلج أرسلان بالإمبراطور البيزنطي مانويل الأول الذي أرسل له مساعدة عسكرية طبقا لسياسته في إذكاء نار الخلافات بين الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى٠ ولكن ياغي أرسلان لم يلبث أن توفي واستولى قلج أرسلان الثاني على بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن دانشمند ، لأنه ملك بعد عمه ياغي أرسلان ، واستولى ذو النون محمد ابن دانشمند على مدينة قيسارية٠ وملك شاهان بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية، واستقرت القواعد بينهم واتفقوا كما يقول ابن الأثير : غير أن تفكك دولة بن دانشمند أغرى قلج أرسلان الثاني بأن يضم إليه بعض بلادهم، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م زحف على ملطية وسيواس فاستولى عليها وطرد منها صاحبها ذالنون محمد ابن دانشمند ،فهرب الأخير، ملتجئاً إلى نور الدين محمود و مستمدا العون منه ، فأكرمه وأرسل إلى قلج أرسلان يطالبه بإعادة. بلاد ذي النون إليه، فلم يُجبه إلى طلبه وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، آما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما ٠ وإزاء إصرار قلج أرسلان على موقفه، ولم يجد نور الدين بدا من الضغط عليه عسكريا، فسار إلى جنوب آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون التابعة لقلج أرسلان ، كما أرسل فرقة عسكرية انتزعت سيواس وأعادتها إلى ذي النون ، وعندما شعر قلج أرسلان بجدية تهديد نور الدين أرسل إليه طالبا الصلح، فأجابه نور الدين إلى طلبه، وأرسل إليه شروطه ومن أهمها قوله : إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسيّره فإنك ملكت طرفا كبيرا من بلاد الإسلام وتركت الروم و جهادهم وهادنتهم، فأما أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الأفرنج ، واما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم ولم يسع قلج أرسلان إلا الموافقة على شروط نور الدين الذي ترك فرقته العسكرية في سيواس لمساعدة ذي النون بن دانشمند٠ وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م عاد قلج أرسلان واستولى على بلاد ذي النون مرة آخرى٠ ولم يجد ذوالنون ابن دانشمند حليفا يشدُ من أزره ويقف إلى جانبه، بعد وفاة نور الدين، فلجأ الى القسطنطينية شاكيا من قلج أرسلان كما أن شقيق قلج آرسلان شاهان شاه لجأ هو الآخر إلى القسطنطينية بعد أن انتزع منه بلاده٠ ومن الطبيعي أن يستجيب مانويل الأول لذي النون وشاهان شاه ولاسيما بعد أن ازدادت قوة قلج أرسلان كثيراً بعد أن عزل سائر منافسيه وأصبح هو الحاكم الأقوى في أسيا الصغرى ٠ كما أن قلج إرسلان استأنف من جانبه غزواته على حدود الدولة البيزنطية بتشجيع من الإمبراطور الألماني فريدريك بربرسا الذي يبدو أن هدفه من ذلك تحويل انتباه مانويل عن التدخل في الشئون الأوربية من ناحية وتخفيف الضغط على الإمارات الصليبية في بلاد الشام من جانب المسلمين من ناحية أخرى ولذلك شرع مانويل في تحصين نشط لحدوده فأعاد بناء دوريليوم كما أحرز بعض الإنتصارات البسيطة في صيف سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م

وأرسل إلى البابا في روما يحثه على الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وبدأ في أعداد قوات الإمبراطورية للزحف على آسيا الصغرى ،ويبدو أن قلج أرسلان علم بالإستعدادات الضخمة للإمبراطورمانويل و تصميمه على اجتياح بلاده، فأرسل في شتاء ٥٧١هـ/١١٧٥م-١١٧٦م رسولا إلى القسطنطينية ملتمسات تجديد اتفاقية الصلح ، فقوبل هذا الإلتماس بالرفض. وفي ربيع عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م قاد الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كل قوات الإمبراطورية البيزنطية عاقدا العزم على طرد الأتراك من غربي آسيا الصغرى طردا تاما ، ثم الإستيلاء على العاصمة السلجوقية قونية ٠ ثم أرسل الإمبراطور مانويل حملة من قواته بقيادة ابن عمه اندرونيكوس فاتاتزيس وبصحبته ذي النون الدنشمندي للإتجاه الى نكسار لإنتزاعها من قلج أرسلان وتسليمها إلى ذى النون ، ولكن ذالنون تخلى عن القيام بالدور المطلوب منه لمساعدة البيزنطيين ٠ والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا تخلف ذو النون عن القيام بالدور المناط به؟ الحقيقة أنه لم يرد في المراجع المتداولة تفسير السبب الذي جعل ذا النون لا يقوم بالدور المكلف به ٠ غيرأن السبب لا يخفى على الباحث الحصيف اذا مانظر للحوادث نظرة شمولية ، وعرف الموقف برمته في منطقة الشرق الأدنى حينذاك فالراجح أن ذا النون خشي أن تفشل حملة الإمبراطور مانويل وهو ما حصل بالفعل وبالتالي لا يبقى له مكان يلجأ اليه هربا من انتقام قلج أرسلان ولا سيما وان نور الدين محمود الذي حماه في السابق قد توفي في ذلك الحين،وانقسم البيت الزنكي كما هو معروف،وبدأ النزاع يحتدم بين صلاح الدين و الزنكيين على السيطرة على بلاد الشام٠كما لا يستبعد إن ذا النون شعر أن إنتصار مانويل يعني انهيار نفوذ الترك وسيطرتهم على آسيا الصغرى، وهذا يعني أن ذا النون يشارك في تدمير قومه مما سيلحق به عارا لايُمحى إذا ما شارك في الحملة ٠ وكي لا يظهر بمظهر الخائن في نظر المسلمين بمشاركته أعدائهم، كل هذه الأسباب وربما بعضها ، حمل ذا النون على التخلي عن البيزنطيين ومخالفة الخطة المتفق عليها ٠ وفي ربيع الأول ٥٧٢هـ/سبتمبر ١١٧٦م وبعدأن تخلى ذو النون عن البيزنطيين حلت الهزيمة الساحقة بحملة اندرونيكوس فاتاتزيس عند أسوار نكسار ، وقُتِل وأُرسلت رأسه كدليل على النصر إلى السلطان قلج أرسلان٠ والراجح ان خطة الإمبراطور مانويل ارتكنت الى ان ينجح ابن عمه اندرونيكوس في الاستيلاء على نكسار في الوقت الذي يكون فيه الإمبرطور قد حاصر قونيه عاصمة قلج أرسلان ليبدأ بعد ذلك اندرونيكوس في الضغط على سلاجقة قونية من الشرق، ويتم وضع مملكة قلج أرسلان بين فكي كماشة للإطلاق عليها ٠ وكيفما كان الأمر فقد جمع قلج أرسلان عساكره من جميع حلفائه وأتباعه فأصبح يناهز في العدد جيش الإمبراطور البيزنطي وإن كان يقل عنه في الأسلحة والعدة، ويبدو أن قوات السلطان الرئيسية تتكون من قبائل التركمان الرماة الذين يمتازون بدقة التصويب وخفة الحركة ٠ وسارالإمبراطور مانويل بجيشه الهائل المثقل بالأمتعة والمؤن ومعدات الحصار قاصدا قونية عبر اقليم فيرجينا واجتاز طريق لوديكيا وأعالي وادي نهر الميندر مارا بحصن سوبلا يوم الذي بناه في السنة السابقة حتى وصل منطقة جبلية قريبة من الحدود، بينما تقدم قلج أرسلان بقوته بمحاذاة اكشيهير وهنا جدد قلج أرسلان طلبه عقد

الصلح ، فرفض مانويل مرة أخرى . وصعد الإمبراطور بجيشه وادي الميآندر نحو السلسلة الضخمة من جبل السلطان والمشتمل على شعب ضيق شديد الإنحدار شمالي بحيرة اجريدير (المسمى حاليا ممر تشاردراك) ويقع في نهاية الشعب حصن بيزنطي مهجور يعرف باسم ميريوكيفالوم قرب الحدود . وكان الجيش السلجوقي قد احتشد حول التلال الجرداء المشرفة على الشعب بحيث أصبح واضحا بجلاء للبيزنطيين . وانقسم الرأي بين قادة الجيش البيزنطي ، فالقيادة المتمرسون من ذوي الخبرة الطويلة في حروب آسيا الصغرى والمدركين لأساليب الترك القتالية أشاروا على الإمبراطور بالتراجع، وحذروه من مغبة مواصلة الزحف ، في حين حث القادة الشباب المتحمسين الإمبراطور على المضي قدما عبر الممر متوهمين أن في مقدورهم اكتساح الأتراك وإحراز النصر وتحقيق المجد فاستجاب الإمبراطور لرأي القادة المتهورين . وفي ربيع الأول ٥٧٢هـ/ ١٢سبتمبر ١١٧٦م مضت مقدمة الجيش داخل الشعب الضيق غير مبالية بالأتراك الذين اعترضوا طريقها وحاولوا في البداية المقاومة ثم تراجعوا ، وفق خطة مرسومة على الأرجح ، وأخذ الأتراك المسلمون يدورون حول التلال، وينقضون على جناح الجيش البيزنطي ومؤخرته ، وفي الوقت الذي واصلت فيه فرق الجيش الأخرى التقدم داخل الشعب وضغطوا على بعضهم البعض بشدة وحاول صهر الإمبراطور بلدوين الأنطاكي رد الهجوم التركي فقاده فرقة من الفرسان في هجوم مضاد على التلال غير أنه قُتل مع كل الفرسان الذين معه وكان الأتراك يلوحون برأس اندرونيكوس فاتاتزيس لكي يحطموا معنويات البيزنطيين ويفتوا في عضدهم، نظرا لأنهم لا يعلمون المصير الذي آلت إليه حملته، وكان لمصرع بلدوين ورؤية رأس اندرونيكوس أسوأ الأثر على معنويات البيزنطيين المتورطين في الشعب وفي تلك الأثناء فقد الإمبراطور شجاعته وولى هاربا خارج الشعب لا يلوي على شيء، وتبعه كل أفراد الجيش الذين وجدوا أنفسهم متشابكين مع عربات الأمتعة والمؤن التي سدت الطريق خلفهم ، وهناك انحدر عليهم الأتراك المسلمون من أعالي التلال وشرعوا يحصدونهم حتى حلول الظلام، أما الإمبراطور فقد جرى إيقافه أخيرا من قبل بعض ضباطه، وكان في الإمكان إبادة الجيش البيزنطي بأكمله وأسر الإمبراطور مثلما حدث في ملاذكرد، غير أن قلج أرسلان أمر أتباعه بالتوقف عن القتل فأنقذ ما تبقي من فلول الجيش البيزنطي ،على إن معظم الجيش الإمبراطوري أبيد في المعركة . وقد صور المؤرخ البيزنطي المعاصرو نيستاس خونياتس تلك المعركة بإنها كانت منظرا بالغ التمزق ، بل إنه يبرز القول، فآلكارثة كانت عظيمة اذ أن القول أنها كانت فاجعة لايكفي فالحفر امتلأت إلى ذروتها بالجثث ، وهناك في الوهاد وشعاف الجبال كانت أكوام من القتلى ، ولم يعبر أحد بدون جروح أو عويل ، فالجميع كانوا يبكون ويولولون منادين أصدقائهم وأقربائهم المفقودين بأسمائهم . شرع مانويل في جمع شتات بقايا جيشه الممزقة، وقبل السلطان قلج أرسلان التماس الإمبراطور السلام، واشترط عليه هدم الحصنين الجديدين دوريليوم وسوبلايوم ، فقبل مانويل راضيا وشاكرا هذه الشروط السهلة ، وانسحب مخربا تحصينات سوبلا يوم وتاركا دوريليوم، وعاد مع بقاياه الممزقة صوب القسطنطينية، وقد أرسل معه السلطان ثلاثة أمراء من السلاجقة ممر أفقين لحمايته من هجمات التركمان أثناء عودته . لقد كان في مقدور السلطان قلج أرسلان

إملاء شروط قاسية على الإمبراطور مثل إخلاء كل آسيا الصغرى فورا وتركها نهائيا للسلاجقة ولذلك يعجب بعض أساتذة التاريخ البيزنطي لتلك الشروط السهلة التي قدمها قلج أرسلان لمانويل بعد المعركة، والتي لا تتناسب مطلقا مع ما حازه من انتصار. ويذكرون أنه لأسباب لا تزال غير معروفة استخدم قلج أرسلان انتصاره باعتدال وفتح بابا المفاوضات مع الإمبراطور والتي أفضت إلى معاهدة سلام معقولة لم تتضمن سوى تدمير بعض الحصون البيزنطية، ويعزو بعض الباحثين الآخرين شروط قلج أرسلان السهلة، إما لأنه كان قانعا بحدوده المميزة وإن ما ينشده على الحدود الغربية هو الأمن والسلام، أو لأنه لم يدرك حجم الإنتصار الذي أحرزه والواقع أن الأسباب التي حدثت بقلج أرسلان إلى تقديم شروط سهلة للإمبراطور البيزنطي، هي أن جُلّ اهتمامه كان منصبا نحو الشرق فكان يريد السلام على الحدود الغربية كيما ينصرف إلى توطيد نفوذه في الشرق وإخضاع بقية الإمارات المستقلة في تلك المناطق، ثم العمل على توسيع نفوذه في أعالي الجزيرة والشام، ولاسيما وأن نور الدين محمود قد توفي، وهو الرجل الذي كان قلج أرسلان يخشاه في هذه المناطق. اضافة إلى أن صلاح الدين كان حينذاك منهمكا في توطيد نفوذه في مصر وفي جهاد الصليبين، بل وكان النزاع محتدما بين صلاح الدين وبين بقايا الزنكيين في شمال الشام والجزيرة. الأمر الذي يبدو أنه جعل قلج أرسلان يسارع بعقد الصلح مع الإمبراطور مانويل لكي يفيد من ذلك النزاع لحسابه الخاص. ومما يزكي هذا الرأي أن قلج أرسلان شرع فعلا في التوسع في أعالي الشام والجزيرة وفرض الحصار على حصن رعبان المهم في شمال الشام، والذي كان قد انتزعه منه نور الدين وهو في ذروة مجده، ولكن صلاح الدين رغم انشغاله حينذاك بقتال الفرنج وتخريب حصن بيت الأحزان أرسل ابن أخيه تقي الدين عمر لنجدة رعبان فأنزل الهزيمة بقلج أرسلان ومنعه من التوسع في شمال الشام. ولعل قلج أرسلان أدرك إن القضاء التام على نفوذ الدولة البيزنطية في كل آسيا الصغرى قد يحدو بها إلى استثارة البابوية والغرب الأوروبي مما يجعلهم يشعرون بالخطر مثلما حدث بعد ملاذكرد- الأمر الذي سيدفع بهم إلى تجريد حملة صليبية ضده، في وقت لا تزال فيه بعض أجزاء من آسيا الصغرى في الشرق والجنوب خارجة عن سيطرته. وقد أدرك الإمبراطور مانويل نفسه مدى الكارثة التي حلت به وبالأمبراطورية البيزنطية في معركة ميريوكيفالوم، حتى أنه شبهها بمعركة ملاذكرد(مانزيكرت) التي وقعت للأمبراطور رومانوس ديوجينس قبل قرن من الزمان. ويقرر المؤرخ الألماني كوجلر أن معركة ميريوكيفالوم قررت وإلى الأبد مصير الشرق. ويمكن لنا القول : أنها كانت نقطة تحول في تاريخ العالمين الإسلامي والمسيحي في ضوء النتائج التي تمخضت عنها وهي: أولا : فيما يتعلق بسلاجقة الروم فالحقيقة أن معركة ميريوكيفالوم تضارع في أهميتها ونتائجها معركة ملاذكرد، فإذا كانت معركة ملاذكرد قد فتحت أبواب آسيا الصغرى على مصراعيها أمام الأتراك السلاجقة فإن معركة ميريوكيفالوم ووطدت ورسخت وجود الأتراك السلاجقة المسلمين على أرض آسيا الصغرى. ذلك أنه ترتب على معركة ملاذكرد ردة فعل عنيفة لدى الأباطرة البيزنطيين استمرت على مدى قرن من الزمان، فبذلوا كل ما في وسعهم من محاولات لاسترداد آسيا الصغرى، وتجسدت تلك المحاولات في الاستنجاد بالغرب

الأوروبي و البابوية من قبل ميخائيل السابع والكسيوس مؤمنين، ثم ما أمله الكسيوس من الإفادة من الحملة الصليبية الأولى في استرداد آسيا الصغرى ،وما قام به الأباطرة من أسرة آلِ كومنين من محاولات جادة ، عن طريق الحملات التي قادوها بأنفسهم ضد الأتراك السلاجقةفجاءت معركة ميريوكيفالوم لتبدد ردة الفعل تلك ولتقضي وإلى الأبد على كل الآمال والأحلام البيزنطية في اعادة آسيا الصغرى إلى حظيرة الإمبراطورية ، ناهيك عما نجم عن معركة ميريوكيفالوم من ازدياد الضعف والخورالذي انتاب الإمبراطورية البيزنطية مما جعلها تقف عاجزة حتى عن الدفاع عن وجودها أمام الحملة الصليبية الرابعة بعد٢٨ سنة على معركة ميريوكيفالوم، فصارت بلادأسيا الصغرى أرضا للترك ومنذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت تدعى في المصادر الغربية باسم تركيا، كما أن قلج أرسلان تمكن بعد معركة ميريوكيفالوم من إرسال قواته إلى غربي أسيا الصغرى ، ففتحت مناطق يلوبورلو وكوطاهيا واسكى شهر، ولم يجد التركمان المسلمون بعد معركة ميريوكيفالوم صعوبة في التوغل بخيولهم وسائمتهم مع مجاري الأنهار حتى مصباتها في بحر ايجه. وبفضل هذا النصر الحاسم توطدت الوحدة السياسية للأناضول وسادبها القانون والنظام وبدأت حقبة التقدم الإقتصادي والثقافي، وبلغت دولة سلاجقة الروم ذروة المجد في عصرها الذهبي الذي استمر حتى الغزو المغولي سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م ، كما تكثفت طرق المرور الهامة للتجارة العالمية في تلك المنطقة وأصبحت آسيا الصغرى جزءا رئيسيا من العالم الإسلام٠

ثانيا : كانت معركة ميريوكيفالوم بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كارثة عظمى منيت بها ٠ أراد الإمبراطور مانويل أن يبدد الخطر السلجوقي فإذا به يقع مع إمبراطوريته في هوة سحيقة لا سبيل إلى الخروج منها ٠ ومع ذلك فإن مادحا مجهولا لمانويل قلب فراره الفعلي أمام الأتراك المسلمين إلى واحدة من مآثره الرائعة حينما قال: بعد الإصطدام مع حشود المهاجمين الأتراك اندفع (مانويل) إلى الهرب بمفرده دون أن يخشى السيوف والسهام والرماح٠ أما ابن اخت مانويل فقد زين بيته الجديد بصور زيتية ومن ضمنها صور تتضمن أعمال السلطان على الجدران، ولكنه وضعها في الأماكن المظلمة من الدار تعبيرا عن التشاؤم ، وهي في حقيقتها تشرح الكارثة التي حلت بالإمبراطورية في معركة ميريوكيفالوم ٠ ورغم ادراك مانويل لإبعاد الكارثة التي حلت به وحقيقة ما فقده في المعركة فإنه حاول التقليل من هزيمته الساحقة في نظر معاصريه، ففي رسالة طويلة بعث بها إلى صديقه الغربي الملك هنري الثاني بلا تاجنيت ملك إنجلترا، أعلن مانويل هزيمته ، ورغم إنه حاول بوضوح أن يخففوا قليلا ، إلا أن القصة الكاملة للمعركة أعطيت من جانبه في تلك الرسالة، كما أورد فيها معلومات مهمة تتعلق باشتراك الرجال الإنجلتري في المعركة ،والذين خدموا الأباطرة البيزنطيين كجنود مرتزقة منذ سنة ١١٦٦م وبخاصة في الحرس الأمبراطوري٠

غير أن كل تلك المحاولات لم تجد نفعاً في التخفيف من وقع الكارثة على الإمبراطورية ، فهيبة مانويل انحدرت إلى الحضيض، إذ أن هزيمته في معركة ميريوكيفالوم أذكرت الرغبة لدى الأباطرة الجرمان من آسرة الهوهنشتاوفن في أن تصبح سيطرتهم عالمية الطابع ، أي على الشرق والغرب على حد سواء٠ فقد أرسل الإمبراطور مانويل بعد معركة ميريوكيفالوم رسالة إلى الإمبراطور فريدريك الأول بربرسا صاحب الإمبراطورية الرومانية المقدسة

صور فيها وضع السلطان قلج أرسلان وكأنه ضعيف. غير أن فردريك بربرسا قد علم في ذلك الحين بحقيقة هزيمة مانويل الساحقة، وفي رده عليه أعلن فردريك أن الأباطرة الجرمان تسلموا سلطتهم من أباطرة الروم العظام، ليحكموا، ليس فقط الإمبراطورية الرومانية بل المملكة اليونانية (الدولة البيزنطية) ولذلك أمر فردريك الملك اليوناني مانويل بأن يعترف بالسلطة للإمبراطور الغربي ويطعن لسلطة البابا ،. وأنهى فردريك خطابه بالإشارة إلى أنه سوف يعدل سلوكه في المستقبل ازاء مانويل الذي كان يزرع عبثا القلاقل بين الأتباع الإقطاعيين ضد الإمبراطورية الغربية، وهذا كله يشير بوضوح إلى انهيار هيبة الإمبراطورية البيزنطية ورغبة الإمبراطور الألماني في استغلال هزيمة البيزنطيين وفرض سيطرته عليهم. ولم يستطع مانويل أن يخفي الأثر الذي تركته معركة ميريوكيفالوم في نفسه وقد وصف المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري حالة مانويل النفسية حين زار القسطنطينة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م في طريق عودته من مجلس اللاتران الثالث الذي انعقد في روما، وفي القسطنطينة حضر بعض الإحتفالات الإمبراطورية، ووصف حالة مانويل النفسية مؤكدا على أنه لم يسترد عافيته وطمأنينته أبدا، وأنه لا يزال يحمل في قلبه أثرا عميقا من هزيمة ميريوكيفالوم، ولم يعد يبدي روحا مرحة، وهي التي كانت تميزه في السابق، ولم يظهر مبتهجا أمام مواطنيه مهما تضرعوا إليه ولم يعد ينعم بصحة جيدة، بعد أن كان قبيل تلك الحادثة مفعما بالصحة، رابط الجأش مؤلفته للنظر، إذ أن تلك الهزيمة اخمدته إلى الأبد.

وأشار وليام الصوري إلى ما تركته هزيمة ميريوكيفالوم من أثر سيء في نفوس الصليبين. ونتج عن معركة ميريوكيفالوم تدمير الجيش البيزنطي الذي أُنشىء تدريجيا وبتضحيات جسيمة للبيزنطيين. ولفترة من الزمن أصبحت الإمبراطورية بدون حماية عسكرية، وجرى تطويقها من جانب أعدائها الذين طمعوا فيها. أما حلم مانويل في جعل الإمبراطورية مرة أخرى قوة عظمى فقد ذهب أدراج الرياح. وأخيرا طُردت الحاميات البيزنطية القليلة من إيطاليا وشرع الهنغاريون في جس الحدود الشمالية، وأسهم الصربيون في زعزعة السيطرة البيزنطية، وليس هناك سوى القليل الذي استطاع أن يفعله مانويل ازاء تلك الأزمات التي أخذت تترى على الإمبراطورية بعد معركة ميريوكيفالوم، فبدد موارد الإمبراطورية وأنفق الثروة المكدسة من قبل والده، الشدي الحرص في النفقة، كما أنفق النفائس لمعدة للإستخدام في أوقات الطوارئ على الجنود المرتزقة، وابتدع حكم الطبقة العسكرية التي انفرد أعضاؤها بكراهية الشرقيين. والأمر الذي لا شك فيه أن فناء الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم يفسر السهولة التي سقطت بها القسطنطينة أمام الحملة الصليبية الرابعة، اذ لو قد لجيشها البقاء لأصبح من العسير جداً على الحملة الصليبية الرابعة اقتحام القسطنطينية والإستيلاء عليها. وصفوة القول أن الإمبراطور مانويل كان يريد السيادة العليا على الإمارات الصليبية في الشرق والنجاح في هنقاريا وتتهم أن في مقدوره أن يحتل منطقة واسعة في إيطاليا وأن يحافظ على مركزه في سائر الميادين الشرقية والأوروبية، جاءت معركة ميريركيفالوم الحاسمة لتبدأ كل المكاسب التي أحرزتها الإمبراطورية في السابق فانهار النفوذ البيزنطي في الشرق وطُرد البيزنطيون من قيليقية وفقدوا

السيطرة على آسيا الصغرى إلى الأبد.

ثالثا : أما عن أثر معركة ميريوكيفالوم على الصليبين ، فقد حاول مانويل أن يثبت في السنة التالية للمعركة ٥٧٣هـ/١١٧٧م أنه لا زال قادرا على مساعدة الصليبين فأرسل أسطوله بحرا للمشاركة مع مملكة بيت المقدس الصليبية لغزو مصر غيرإن الحملة لم تبحر إلى مصر مطلقا بسبب تقاعس فيليب كونت فلاندر الذي وصل مؤخراً من أوروبا ٠ ورغم احتفاظ مانويل بعلاقات جيدة مع أصدقائه الصليبين في بلاد الشام وجهوده في سبيل ازالة الحواجز بين اليونانيين واللاتين وعمله على تقليص المشاحنات السياسية اللاذعة والتيارات الدينية المتنافرة بين الجانبين ، فإن ذلك كله لا يمكن أن يحجب حقيقة تدمير قوات الإمبراطورية في معركة ميريوكيفالوم وانهيار السياج الإخير الذي يمكن أن يركن الصليبيون إلى مساعدته في وقت الشدائد٠ وقد أدرك المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري تلك الحقيقة كما ذكرنا آنفا ويعلق بعض الباحثين المحدثين بقوله :إن الهزيمة الساحقة التي حلت بالإمبراطور مانويل من جانب سلاجقة قونية (١٧سبتمبر١١٧٦) أقصت البيزنطيين بوصفهم حليفا فعالا في مستقبل الحملات الصليبية في بلاد الشام ومصر٠ ذلك أنه برغم شعور الشك والريبة الذي ساد بين الدولة البيزنطية والصليبين منذ فجر الحركة الصليبية فانهم كانوا يلوذون بها وقد شاركتهم أحيانا في شن الحرب المباشرة على المسلمين مثل الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة التي قادها الإمبراطور حنا كومنين ضد عناد الدين زنكي سنة ٥٣١/١١٣٨ ، لذلك كله من الطبيعي أن تصيب معركة ميريوكيفالوم الصليبين بالفزع والهلع ، لأنهم أدركوا انكماش الإمبراطورية البيزنطية عن آسيا الصغرى وزوال مساعدتها المقدمة إليهم ولاسيما إلى إمارة أنطاكيا بالذات جعلهم في الميدان وحدهم أمام المسلمين٠

رابعا : أما عن أثر المعركة على الجبهة الإسلامية ضد الصليبين بقيادة صلاح الدين، فعلى الرغم من أن سلاجقة الروم لم يرسلوا قواتهم للإشتراك مع صلاح الدين في جهاد الصليبين الا أن قضاءهم على الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم كفل الأمن للجناح الشمالي لجبهة صلاح الدين ، فقد كانت تلك الجبهة كما رأينا مصدر قلق لنور الدين محمود إبان حياته وحالت بينه وبين الامعان كثيراً في الضغط على الصليبين٠ وليس هذا فحسب ، بل لقد أصبحت الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة مانويل تتخلى نهائيا عن سياستها الصليبية وقلبتها رأسا على عقب، فلم تجد غضاضة في التماس صداقة صلاح الدين فعقدت معه معاهدة سلام وصداقة ضد المصالح الصليبية في بلاد الشام٠ وبذلك خدمت معركة ميريوكيفالوم القضية الإسلامية برمتها .. وهكذا كانت المعركة الحاسمة احدى المآثر العظيمة التي قام بها الأتراك المسلمون في التاريخ .

ذلك أنه برغم شعور الشك والريبة الذي ساد بين الدولة البيزنطية والصليبين منذ فجر الحركة الصليبية فانهم كانوا يلوذون بها وقد شاركتهم أحيانا في شن الحرب المباشرة على المسلمين مثل الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة التي قادها الإمبراطور حنا كومنين ضد عناد الدين زنكي سنة ٥٣١/١١٣٨ ، لذلك كله من الطبيعي أن تصيب معركة ميريوكيفالوم الصليبين بالفزع والهلع ، لأنهم أدركوا